كين لوتش في «الريح التي هزت حقل الشعير» والصراع على ايرلندا:

فظاعة الاحتلال وقسوة التحول الثوري وصراع الأشقاء على إرث العائلة الملتبس

ابراهيم درويش*

■ فيلم المخرج البريطاني كين لوتش الذي فاز بجائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان الفرنسي «الريح التي هزت حقل الشعير»، يعرض منذ اسبوعين في دور العرض البريطانية بعروض محدودة، فعدد دور السينما التي يعرض فيها لا يتجاوز الثلاثين، ولهذا السبب وجدت نفسي الجمعة الماضية بين عدد قليل من المشاهدين الذين اختطفوا انفسهم من مباريات كأس العالم في المانيا، والمصطافين الذين يحضرون انفسهم لقضاء عطلة نهاية الاسبوع. قاعة العرض كانت صغيرة، وعدد الحضور لم يتجاوز عدد اصابع اليد.

لم يلق الفيلم احتفاء نقديا من نقاد الصحف الشعبية او الرصينة، والذين اثنوا على الفيلم ركزوا على جمالياته وليس سياساته، او قارنوا الفيلم بافلام اخرى للوتش، ارض الحرية عن الحرب الاهلية الاسبانية في الثلاثينيات من القرن الماضي واغنية كلارا عن الحرب في نيكاراغوا. الاشكالية التي يتصدى لها الفيلم حساسة وتنكأ الجراح في التاريخ الانكليزي ـ الايرلندي الدموي، فهو تحفيز المشاهد لرؤية الاثر الصادم والدامي للاحتلال. وعليه فمركز الفيلم هو عن ممارسات فرق الموت البريطانية «بلاك تانز» والفرق الايرلندية الاخرى التي نشأت بعد الاستقلال واخذت تقاتل الذين رفضوا التفاوض مع الانكليز.

الزمان هو عام 1920، المكان قرية/ مزرعة ايرلندية بعيدة، المشهد الاول مجموعة من الشبان الايرلنديين يلعبون لعبة تشبه الكريكيت وينتهون الى بيت كبير، نسمع من احاديثهم عن خطط الطبيب الشاب داميان (سيليان ميرفي) السفر الى لندن لاكمال تدريبه كطبيب. لكن ما يعكر صفو المشهد هو بروز الجنود الانكليز مدججين بالسلاح ويمارسون سلطة المحتل حيث يقتلون مزارعا رفض الافصاح عن اسمه، عندها يغير الطبيب الشاب خططه ويقرر الانخراط في حركة المقاومة الايرلندية للوجود الانكليزي. تتابع مشاهد الفيلم سريعة، عن الاعداد، وتجهيز المتطوعين الشبان ثم قتل عدد من الجنود الانكليز في حانة للخمر.

ويوازن الفيلم بين فكرة تعاون قطاعات من السكان خاصة الارستقراطيين مع الانكليز وتعاون اخرين مع المقاومة، فشنيد (اورلا فيتزجيرالد) الفتاة التي خسرت شقيقها تقوم بمهام نقل الرسائل الشفوية بين المقاتلين ورؤسائهم، فيما يقدم صاحب عزبة كبيرة سير جون هاميلتون (روجر الام) معلومات عن نشاطات عدد من المقاومة وعلاقتهم بمقتل الضباط الانكليز. وتقود تحقيقات الجيش الانكليزي لالقاء القبض على المجموعة حيث تتم ممارسة التعذيب على المعتقلين بمن فيهم تيدي الذي تقتلع اظافره في مشاهد تثير القشعريرة فيما يقوم اصدقاؤه بالغناء الوطني للتغطية على صياحه والامه.

في مركز فيلم لوتش قصة اخوين تيدي (بادريك دليني) وداميان، المقاتلين في صفوف المقاومة الايرلندية والمطالبين باستقلال ايرلندا بما فيها الستر، ويبدو ان العلاقة بين الاخوين هي ما يشد مشاهد الفيلم والنص الذي كتبه كاتب النصوص الذي تعاون مع كين لوتش في اكثر من فيلم، بول لافرتي.

كين لوتش معني عبر جماليات المكان الايرلندي لاستعادة اثر الحرب والاحتلال، وطالما اشتكى من ان النقاد لا يأخذون افكاره السياسية بجدية، ولوتش هنا لا يبشر بافكاره بطريقة فجة، ولان السينما هي عن الصورة واثرها، فالايديولوجيا تعمل من خلال تكييف الصورة، ومع ذلك فالموقف الذي يجابه به المشاهد هو ليس معركة بين الخير والشر الممثلة برجال المقاومة الايرلنديين والانكليز الذين لم يظهروا بمظهر جيد. فالمقاومة ستنقلب على نفسها عندما تواجه بمعضلة السياسة. فسيتذكر الطبيب الشاب داميان عندما اجبره شقيقه على قتل صديق طفولته في الجبال بول رايلي لانه تعاون مع الانكليز ويبرر له ان هذه معركة ومقاومة وسيتذكر الطبيب كيف ذهب واخبر والدة الشاب عن مقتل ابنها، وكيف انها لم تقل كلمة واحدة في الرحلة الطويلة الى الجبال بحثا عن قبر ولدها وعندما وصلت الى الدير الذي دفن فيه ابنها تنظر اليه قائلة: اغرب عن وجهي لا اريد رؤيتك مرة اخرى. المشهد يتكرر بين الاخ واخيه، عندما يصبح تيدي من الداعمين لفكرة الدولة الحرة التي جاءت نتيجة للمفاوضات مع الانكليز ـ والاخ الشاب الذي يريد تحرير كل الارض ومواصلة معركته الاشتراكية. تبدو المعركة بعد اعلان الهدنة والشروع في المفاوضات التي خاضها سياسيون ايرلنديون مثل مايكل كولينز الذي كان موضوعا لفيلم انتجه نيل جوردان، والمشهد الجديد في ايرلندا عندما اصبح الثوار السابقون سياسيين تتجاذبهم تيارات الواقعية السياسية والثورية الاجتماعية.

في هذه المرحلة من الفيلم نصل الى نهاية التوتر بالمواجهة بين الشقيق الثائر والسياسي، ففي محاولة لمواصلة الثورة يقوم الاخ بمحاولة لتصحيح الوضع بالقوة ومواصلة الثورة وعندها يحاكم من شقيقه بالعصيان، ولا يفلح الاخ الشقيق باقناع الشاب بالتخلي عن موقفه حيث يذكره بالمشهد مع مقتل رايلي في الجبال. وكما بدأ الفيلم في البيت انتهى في البيت عندما يحضر تيدي محملا بوصية اخيه لزوجته شنيد والتي تعرف ان زوجها قتل بسبب تجاذب السياسي والثوري بين عناصر الجيش الايرلندي الحر. وبنفس العبارات تطلب من الاخ الشقيق الرحيل عن المكان.

لقطة من الفيلم

ليس مهما ان تكون عارفا بتفاصيل التاريخ الايرلندي، فالحوار الذي يتم بلغة انكليزية وبلكنة ايرلندية، يخوض عميقا في تفاصيل المشهد السياسي الايرلندي، ولكن لوتش اخترق في هذا السياق المحظورات في تاريخ العلاقة الملتبسة بين ايرلندا وانكلترا، وفي هذا يواصل تحليله سينمائيا ما بدأه في فيلمه التلفزيوني «الاجندة السرية» (1991) عن فرق الموت والتعذيب في بلفاست في ثمانينيات القرن الماضي. ما يثير في مشاهد الفيلم هو نقلها لاثر الاحتلال على المواطنين وفظاعته، في مشاهد التدمير والحرق التي تمارسها قوات الاحتلال او تلك المتعاونة معها نعثر على مشاهد وفظائع الاحتلال في العراق وفلسطين، كيف تعيش مجتمعات تحت سطوة بسطار الجندي وبندقيته، ولكن الفيلم هو عن السلاح الذي يشهره الاخ في وجه اخيه، ففي نفس البيت الذي شهد قتل المزارع الايرلندي تقوم جماعات من المؤيدين لاستقلال ايرلندا بترويع لسكان البيت وجز شعر شنيد، تماما كما شهد البيت نفسه مواجهة مع تيدي الثائر السابق والسياسي الواقعي وشنيد زوجة الثائر اليساري الرافض للمساومة قبل تحرير كل الارض الايرلندية.

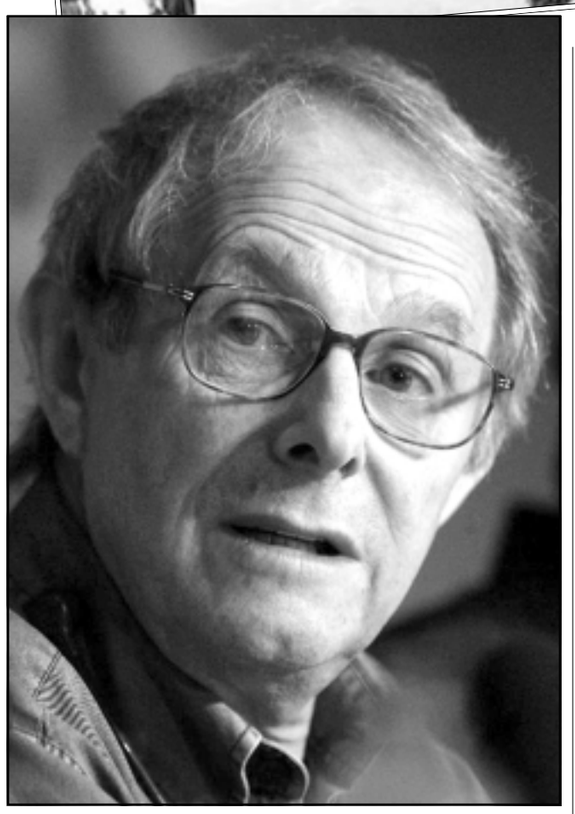

كين لوتش

طبعا سيعترض الكثيرون، وقد اعترضوا على الطريقة التي صور فيها الجنود الانكليز في ايرلندا، ولكن لوتش يتحدث عن فرق متخصصة بالقتل، فقط غير اسم الفرق من «بلاك تانز» الى المارينز الامريكي في العراق او القوات الاسرائيلية في فلسطين.

في مشهد من مشاهد الفيلم يصور لوتش استقبال الايرلنديين لتوقيع الاتفاقية التي تفاوض عليها مايكل كولينز وارثر غريفيث مع الحكومة البريطانية ممثلة بلويد جورج ووينستون تشرتشل، المشهد جاء بفيلم داخل الفيلم، مشاهدون ايرلنديون في السينما يتفرجون على شريط اخبار يتحدث عن المعاهدة. ويتابع المشاهد فورة المشاهدين الذين اعتقدوا ان المعاهدة هي عن استقلال ايرلندا، الا ان نبرتهم وجذلهم يتراجعان شيئا فشيئا لدرجة الخفوت عندما يكتشفون تفاصيل هذه المعاهدة. والمعاهدة التي قدمت تفاصيلها هي اختصار لتاريخ الصراع، الذي تحول على الشاشة لصراع بين الاخيار والاشرار، سواء كانوا ايرلنديين ام انكليزاً.

ان اهم ما في اعمال كين لوتش، هي قدرتها على تحفيز واستفزاز مشاعر المشاهدين، وكذلك قدرتها على طرح الاسئلة المعقدة بطريقة غضة وبدون رتوش، فهي غير مفتعلة او مبالغ فيها. ويبدع كين لوتش كثيرا في البحث عن نقاط الصراع والتوتر في داخل الحدث وأثرها على الابطال، في (اي اي في فور كيس) (2005) عن العلاقة بين كاثوليكية ايرلندية ومسلم اسكتلندي، والحب يقع في مركز الفيلم ولكنه هو القاسم الذي يجمع ويفرق ويجبر الاشخاص على اتخاذ مواقف وخيارات. في «الريح التي هزت حقل الشعير»، تكون العائلة في مركز الفيلم. فقائد «الفرقة الطائرة» فينبار (داميان كيارني) يستعطف حشدا من الرفاق متحدثا ان الروابط التي تربط بينهم ليست ايديولوجية بقدر ما هي شخصية «قد نكون مختلفين. ولكن ما زلنا عائلة واحدة.. وسنبقى كذلك». طبعا في السياق الاجتماعي تعتبر العائلة في مركز الولاء السياسي، وتحمل لهذا كل التوترات والتقاطعات والخلافات السياسية بين افراد العائلة، وهو ما يذكر بمشهد عشاء عيد الميلاد في رواية جيمس جويس «صورة الفنان في شبابه» (1916) التي تحول فيها حدث عائلي جميل الى مناسبة للعداء والمرارة السياسية. وفي فيلم كين لوتش، في ذلك البيت الذي شهد معظم احداث الفيلم يقدم لنا لوتش ثلاثة اجيال: الجدة، بيغي (ماري اوريودان) والام برناديت (ميري ميرفي)، والبنت شنيد (اورلا فيتزجيرالد) والابن مايكل (لورنس باري)، فكل فرد من افراد العائلة يحمل ولاءه السياسي، الجدة تمثل الجيل الذي نجا من المجاعة، والجيل الذي عاش الصراع على الارض، في نهايات القرن التاسع عشر. ولكن فيلم لوتش يصور ايضا الدور الذي لعبته المرأة في الكفاح، قاضية تقف الى جانب الضعفاء في المحكمة، فتاة تنقل الرسائل للمقاتلين، وتشارك في الاحتجاجات ضد تورط الكنيسة الكاثوليكية في دعم الارستقراطيين وملاك الاراضي. ولكن الامر لا يتعلق فقط بالولاءات العائلية بقدر ما يشير الى الضيم والعذاب الذي حصل على العائلة، من خلال مقتل الشاب الابن مايكل على ايدي فرق الموت الانكليزية «بلاك اند تانز». ويبدو البعد العائلي في الفيلم والسياسة الايرلندية واضحا باندلاع الحرب الاهلية، فالمواجهة الاخيرة بين الشقيقين تيدي وداميان، هي عن الخيارات والقرارات التي اتخذها كل منهما بعيدا عن ميراث العائلة، وذكريات الاب، خاصة عندما قام الاخير بطرد عامل في المزرعة، مما يشعل في ذهن الطبيب الشاب فكرة العدل الاجتماعي الذي لا يتحقق الا من القاع. وهذا يعني ان ميراث الاب كان في مركز الامتحان والمراجعة. ان شكل الصراع في الحرب الاهلية، لم يكن بالضرورة مرتبطا بالعمالة وفكرة الخيانة، بقدر ما هو متجذر في الصراع الطبقي وصراع المصالح. ويبدو هذا واضحا في المحاكمة التي تعرض لها تاجر محلي «غومبين»، المتهم باستغلال سيدة، وعندما حكمت عليه المحكمة بدفع تعويض للسيدة العجوز بدلا من ان تدفع له الاخيرة ما يراه مستحقات يتدخل تيدي للدفاع عنه، لان التاجر يقدم له المال اللازم لشراء اسلحة، فالاستقلال الايرلندي كما يرى تيدي لن يتحقق بدون مشاركة رجال الاعمال. وفي النقاشات اللاحقة بين ثوار الامس حول المعاهدة، يجد تيدي نفسه في موقع المدافع عن فكرة الدولة الحرة التي وقع عليها ارثر غريفين والتي لم تشمل الستر، او شمال ايرلندا. في قراءة اخرى للفيلم، لوتش وكاتب نصه، لافرتي، يطرحان اسئلة حول الرواية الرسمية لما حدث في ايرلندا من كلا الطرفين، فـ«الحرب القذرة» حاول كل طرف تجاوزها وتصوير انه قام بالالتزام بقواعد اللعبة او الاشتباك، ولوتش في هذا الاطار يتبع ما قام به مؤرخون معاصرون من الكشف عن فظائع تلك الفترة. ومثلما اثبتت تجربة نيل جوردان مع فيلم «مايكل كولينز» (1996) فهناك صعوبة لاغلاق ملف الحديث عن «حرب الاستقلال» الايرلندية، اذ ان المشاهد يواجه بعدد من وجهات النظر المتضاربة والمتصارعة في نفس الوقت.

ومن هنا فكين لوتش لم يكن يحاول اعادة كتابة التاريخ او تجاهل الوقائع التي يرسمها الفيلم. ولكن اذا ربحت القوى التي اصطفت الى جانب المؤسسة اليوم، فالمشاهد ترك بحس أن فوزها جاء لانها تقف على الجانب الاخر من الصراع/ الخطأ. فالبطل في النهاية هو الطبيب الشاب الذي رفض التنازل. ولكن الامر ليس بهذه البساطة، فالبيت الذي جرت كل الدماء والمياه تحته وشهد كل الفظائع سيكون ساحة لحرب الرفاق عندما تقوم جماعة من قوات الدولة الحرة بالهجوم على مزرعة الجدة، وتقوم بتدمير وتخريب كل شيء، وهو نفس البيت/ المزرعة الذي قدم الامان للثوار والحماية. ويترك رجال القوات الحرة شنيد وهي تملأ جرة من حبوب الشعير التي نثرها الجنود لكي تخبئها ليوم اخر تهز فيه الريح حقل الشعير.

لم يبق في يد الثائر الذي صار سياسيا، والثائر الذي مات برصاص الاخ باعتباره قائدا للعصاة الا قلادة الاخ الجميلة التي حملتها شنيد لزوجها، ربما لمواصلة تقاليد العائلة في الثورة، او حتى لا تنسى ذكريات خيانة العائلة، ولكي تسلمها للطفل الذي لم يلد بعد. هكذا ينقل لنا كين لوتش، الحياة الرعوية والريفية في تماهيها مع المكان في مزرعة ايرلندية اثناء لعبة تشبه الهوكي، لا يعكر صفو مسائها الا وصول الجنود المدججين ليمارسوا القتل ولادخالنا حلقة مظلمة من التاريخ الايرلندي، التلال الخضراء تتحول الى غرف مضاءة بشكل قاتم، والحقول التي تتماوج فيها الاحلام تتحول لمراكز تدريب، ونقاط لالتقاط جنود الاحتلال، والتخلص من الخونة. وكما اشرنا في البداية، ستظل اشكالية الفيلم التاريخية واقترابها من الحقيقة التي يعترف بها كل طرف مثارا للجدل، ولكن الذي لا جدال فيه هو فظاعة الاحتلال وسلطته على حياة الناس. ومن هنا لم يكن لوتش بعيدا عن الحقيقة عندما ربط فيلمه الجديد بالمغامرة الامريكية ـ البريطانية في احتلال العراق.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

الريح التي هزت حقل الشعير (2006)
اخراج: كين لوتش
نص: بول لافرتي
اللغة: انكليزية/ ولغة الغال
127 دقيقة.

في حب كرة القدم: الأحلام والأوهام

بشير مفتي*

■ أن تكتب عن كرة القدم فهذا يعني أنك ستعود بذاكرتك إلى الوراء، إلى سنوات الطفولة، إلى أيام الحلم، إلى اللحظات التي صنعت فيها هذه اللعبة بهجة حياتك وخلقت حالات فرح وغضب ونشوة لا تتوقف أبدا.. ويكفيك أن تضغط على زر الذاكرة حتى تظهر تلك الصور واضحة كالشمس، كشريط سينمائي لم يتقادم بالرغم من مرور السنين، بالرغم من أن كل شيء قد تغير، ليس على مستوى الحياة الفردية فحسب ولكن على مستوى الحياة والعالم.. غير أن كرة القدم لم تفقد بهاءها قط، إنها لا تزال اللعبة الحية والأكثر شعبية في المعمورة بأسرها. ذلك أنها ليست مجرد لعبة، ولكن غواية، شيء خارق بالفعل، مقدس عند شعوب كثيرة، لدرجة أن هناك من يقارنها بالدين الأرضي الجديد..

2 ـ لماذا احتلت «كرة القدم» هذه المكانة الخاصة في وجدان الملايين من البشر؟ سؤال على بساطته تصعب الإجابة عنه، ذلك أن التأويلات والتحليلات الكثيرة تذهب في مجملها للقول أنها لعبة بسيطة ويمكن أن يقوم بها أي شخص. في طفولتنا لعبنا كرة القدم لأنها لم تكن تتطلب إلا أن نحصل على كرة، نصنعها في غالب الأحيان من خلال أكياس الحليب المستهلكة، وقد حشوناها بأوراق الجرائد القديمة، لم تكن مساحة اللعب مهمة، في غالب الأحيان كانت الطرقات هي ملعبنا المفضل، كان يكفي أن يكون هناك خمسة أفراد حتى نلعب مقابلة على أن يتطوع فرد بلعب دور حارس المرمى.. لهذا ظلت هذه الرياضة على بساطتها الأكثر إغراءً من بين الألعاب الرياضية الأخرى، الأكثر جذبا للناس، ذلك أنها تحمل شيئا يميزها أو يصبغها بطابع الإثارة، طابع المواجهة، طابع الحلم، فالحلم موجود في صميم اللعبة، أي كرغبة في أن نكون أحسن وأفضل مما نحن فيه.. بالإضافة إلى كونها «تسلية» وهذا الجانب مهم حتى لو حاولنا أحيانا تجاهله... فاللعب هو شيء مرتبط بمرح الطفولة، بعنفوانها ودهشتها وسحرها الذي لا يتوقف...

3 ـ على الرغم من ومن إلا أن كرة القدم ظلت غائبة عن الأدب، الاستثناء طبعا لا ينفي القاعدة، أما في السينما فالحضور محتشم، على عكس الملاكمة مثلا، ذلك أن السينما تقوم على فكرة الصراع والعنف، لهذا كل الألعاب الرياضية، الكاراتيه، الكونغ فو، الملاكمة لاقت رواجا مدهشا ونجاحا كبيرا في الأفلام الأمريكية على الخصوص، أما كرة القدم فبرغم ما يظهر عليها من خشونة، صراع، فهي لعبة مسالمة طبعا، هي لعبة يثبت من خلالها قوة الإرادة بشكل خاص وليست قوة الحرب.. ولا يسيل فيها «الدم» والذي تتقن السينما الترويج له والعمل على إثارة تلك الغريزة المتأصلة في الإنسان «العنف ثم العنف».

4 ـ ومع ذلك ليس هناك ما هو مثالي خالص، إن الانجذاب الجماهيري في كل العالم لهذه اللعبة يجعلها بالتالي مسرحا لممارسة السلطة، واستخدامها لأغراض سياسوية مختلفة.. وأيضا مجالا خصبا لإدارة الأموال والفوز بالأرباح الخيالية.. فهذا الجانب وإن كان أغلب جمهور كرة القدم لا يتفطنون له أو يرغمون أنفسهم على عدم الخوض في الحديث عنه، إلا أنه يظل نقطة سلبية دون شك لا تنقص من قيمة اللعبة ولكن تحرفها عن غاياتها الجميلة... أو تلك التي نتصورها جميلة...

في عصر العولمة كل شيء ممكن استخدامه لصالح فئة معينة، أقلية تستفيد أكثر وهي تدير من خارج الستار خيوط اللعبة وتستنفع منها بشكل أو بآخر وقد وجهتها الوجهة التي تريد..

في العالم العربي مثلا الذي يعيش مشاكل متعددة الأشكال والوجوه، تصبح كرة القدم هي ملاذ الملايين من العاطلين عن العمل، هي حلم من لا حلم له في الحياة والواقع، تعويض عن خيبة الحياة بكرامة والعيش بشرف ونزاهة، وأحيانا آخر ما يربط الإنسان المهزوم بشيء يتجاوزه، فالإخفاق في كل شيء يولد هروبا نحو الدين أو الرياضة وكثيرا ما يلتقي هذا بذاك ليشكل كتلة هلامية من الجمهور المتعطش لتجاوز بؤس حياته وعقم أحلامه الأخرى.. وتصبح كرة القدم مثلما قال ماركس عن الدين ذات يوم أفيون الشعوب التي لا ترغب في مواجهة مشاكلها الفعلية، والتي تغطس في أحلام يقظة لذيذة لبعض الوقت وليس لكل الوقت.

5 ـ ولكن تلك اللعبة الساحرة لا يمكنها إلا أن تكون غواية منفردة بالفعل، فناً خاصاً، له ما يميزه عن بقية الفنون الأخرى.. لقد كانت الرياضة في الثقافة الإسلامية رمزا للشجاعة والجرأة والنضج وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو أمته لكي تتعلم السباحة وركوب الخيل ورمي الرماح، ولم تكن تلك الدعوة إلا لتعطي الجسد حقه فلا يمكن فصل الجسد عن الروح، وهو يعيش وينتعش من خلال الحركة والرقص والركض والجري وإثبات تفوقه وقدرته وجهده الذي من خلاله تصبح الروح وقد تداخلت مع فوران الجسد أكثر تحررا وتناغما وتداخلا مع ما يميز الإنسان بشقيه المادي والروحي..

إن فن كرة القدم يقوم على إثبات هذا الجانب القوي في الروح الإنسانية، أي إثارة الإرادة وتحريكها من خلال مواجهة على ملعب بين فريقين، وغالب الوقت تكون الإرادة هي الفائز الحقيقي في أي مقابلة، فكثيرا ما تفاجأ بفوز فريق من بلد فقير على فريق من بلد غني ولا نجد السبب إلا في تلك الإرادة القوية التي ميزت الأول عن الثاني (معجزة فوز الجزائر على ألمانيا عام 1982).

6 ـ توقفت عن ممارسة كرة القدم في الحي عندما دخلت الجامعة، كما توقفت عن مناصرة فريق «المولودية العاصمية» في نفس الفترة تقريبا، فالجامعة غيرت من ميولاتي بعض الشيء على عكس الثانوية؛ حيث أغلب الطلبة من الجزائر العاصمة وبالتالي كانت لنا نفس الميولات والذكريات.

في الجامعة كل طالب يحمل ذاكرة كروية أخرى عن منطقته وما أن يدخل الجامعة حتى تتبخر تلك العلاقة أو تفقد وهجها الأول.. تتغير الاهتمامات بداخل الفرد الذي يجد نفسه في مواجهة أحلام أخرى ليست لها علاقة بالكرة ولا بأي رياضة أخرى..

لم ألعب أي مقابلة مع الأصدقاء منذ سنوات طويلة وكثيرا ما يهفو حنين إلى اللعب.. ولكن مع من؟ وكيف يمكن استرجاع لياقة زمان، والقدرة على القفز والركض برشاقة سنوات المراهقة؟

* كاتب من الجزائر

«اقودك الى غيري» رواية اولى للشاعرة السورية عائشة ارناؤوط

باريس ـ من هدى ابراهيم:

لا تتخلى الشاعرة السورية عائشة ارناؤوط المقيمة في باريس عن الشعر في روايتها الاولى «اقودك الى غيري» الصادرة في دمشق حديثا عن «دار كنعان» في الف نسخة بل ان الرواية كلها ولدت من قصيدة سابقة للشاعرة.

تقول عائشة ارناؤوط ان الرواية ولدت من مناخ شعري اما فكرتها فقديمة جدا «بدأت اكتبها منذ عشرين سنة ولم يكن هيكلها واضحا في ذهني، لكني منذ خمس سنوات وبالصدفة عدت لقراءة اوراق قديمة عثرت خلالها على اساس الرواية التي اختلفت تطوراتها كثيرا عن تلك التي اردت وضعها في البداية».

والقصيدة من مجموعتها الاخيرة «حنين العناصر» وجاء فيها «وعند اديم جسدك الذي يتشكل على مهل، تحت اصابعي، اقشر قلبي وافتحه كبرتقالة. تتشكل على مهل تحت اصابعي، ترتقي بي تدلني على وجودي».

وتنبني الرواية على سلسلة من الازمان المتداخلة بين الماضي والحاضر لشابة سورية تنتمي لعائلة من الطبقة المتوسطة تعيش على اطراف دمشق في حي شعبي.

من باريس عام 1999 تبدأ الكاتبة «باجتياز شفافية الزمن لعشرات سنوات خلت» كما تورد في المقدمة لينتقل الحدث بعدها الى سوريا حيث تنفتح المذكرات على بعضها ناهلة من واقع مراهقة تعيش في خمسينات القرن الماضي وتحب الكتابة والفن وتحلم احلاما كابوسية.

هذا الجزء من الحياة المرتبط بالطفولة والمراهقة يحتل جانبا هاما من الرواية: «الطفولة نبع دائم للانسان هي مثل الشجرة او النبتة التي تحمل كل ما كان موجودا في البيئة الاصلية» تقول الكاتبة.

وحول مدى الحضور الاوتوبيوغرافي لما ترويه توضح «حين بدأت اكتب عن الطفولة بدأت احكي عن حالي لكن الكتابة قادتني الى مجاهل واحداث لم اكن قد قررتها بالاساس. التجارب الشخصية تقود الى مفاهيم معينة ورؤية للحياة والوجود تتبنيها مع اسباغ رؤية شمولية عليها».

وتضيف «كنت متصورة اني اقود القارئ الى ذاتي لكن صيرورة العمل والايحاءات التي اعطاني اياها قادت الى غيري الى شخصية ثانية مختلفة».

رواية عائشة ارناؤوط تولد من التباس ما في الوجود يقود للبحث عن معناه فالبطلة تخضع لمجموعة من التحولات ضمن مسيرة البحث عن الذات وعن معنى العلاقة بالآخر.

عملية البحث عن الذات والتحقق والسعي لاكتساب الحرية مسالة جوهرية في الرواية التي تظل فيها البطلة من خمسينات القرن الماضي وحتى ما بعد نكسة العام 1967 في حالة مخاض تسبق ولادتها الحقيقية.

وتحاول الشابة من خلال الاطار العائلي التعاطي مع مفهوم الحرية في مجتمع يعادي هذا المفهوم وفي اسرة تتمسك بالتعليم لابنائها لكنها تختلف معهم حول مفهوم الحرية كما يختلف الذكور مع الاناث بين الاخوة على هذا المفهوم.

«لا يمكن ان نصل الى مفهوم الحرية قبل ان نتحرر» تقول الكاتبة.

هذا الوسط الاجتماعي يتيح للبطلة التعامل مع تناقضاتها والتناقضات المحيطة بها ما يجعلها تتارجح بين القبول والرفض لقيم هذا المجتمع.

وتبدو العائلة اقدر من المجتمع على التعاطي مع حرية البنت الشابة. فالمجتمع والجماعة تحول دون النمو الطبيعي لحرية تلك الشابة بينما تستوعب الام حالة البطلة وتتطور معها وتتعاطف وان قست في بعض الاحيان.

وتنقسم رواية عائشة ارناؤوط الى فصول يحمل كل منها عنوانا وفي فصل «انت الهدية التي لن يفرح بها احد» يبدو الا حل للحرية الا بالمواجهة.

هذه المواجهة فرضت نفسها بعد حرب العام 1967 والهزيمة حيث اختلفت المرحلة واحس المجتمع ذلك بشكل لا واع فتغير واجبر على قبول مزيد من الحرية للمرأة.

البطلة حتى تجربة العمل في المستشفى خلال حرب 1967 لم تكن قد خاضت تجربة على علاقة بالواقع العام فقد اقتصرت حياتها سابقا على تجاربها الشخصية بينها وبين ذاتها وبينها وبين رفاقها.

وتتعرض الرواية من خلال حياة البطلة ومحيطها لقضايا كثيرة تكشف طبيعة المجتمع السوري وبعض ممنوعه فاضافة الى العلاقات الجنسية بين المرأة والرجل خارج اطار الزواج تعرض الكاتبة المحاا للمثلية الجنسية لدى النساء في موقعين من الرواية وبصورتين احداهما مرفوضة والأخرى مختارة.

وتوافق الكاتبة على ان هذه «محرمات».وتختتم بقولها «ولكنها موجودة بشكل خفي او معلن في مجتمعنا كما في كل المجتمعات».

ولدت عائشة ارناؤوط في دمشق واصدرت عددا من المجموعات الشعرية كان آخرها عام 2003 وترجم بعضها الى الفرنسية.

«اقودك الى غيري» هي روايتها الاولى. وتقول الكاتبة انها تعمل على فكرة رواية جديدة تتناول ثنائية الحياة والموت. (أ ف ب)